

فصلية اللسان المبين (بحوث في الأدب العربي)
(علمية محكمة)

السنة السادسة، المسلسل الجديد، العدد الثامن عشر، شتاء ١٣٩٣، ص ١٤٦-١٢٢

الصراع بين الحياة والموت في شعر أبي العتاهية وناصرخسرو*

عباس يداللهي

أستاذ مساعد بجامعة شهيد چمران- اهواز

سردار أصلاني

أستاذ مساعد بجامعة اصفهان

الملخص

يتناول البحث دراسة ظاهرة الحياة والموت في شعر أبي العتاهية وناصرخسرو القبادياني في إطار الأدب المقارن. لا ريب أنّ موضوع الحياة والموت من أهمّ المحاور الزهدية عند الشعراء الزّهاد. تطرّق هذان الشاعران إلى الكشف عن مفهوم الحياة والموت في شعرهما الزهدى. فإذا أمعنا النظر في شعرهما وجدنا أنّ أبا العتاهية خاف من الموت خوفاً شديداً حيث حاول طيلة الحياة الدنيا أن ينجو بنفسه من برائن الموت، ولكنه لم يستطع وأخيراً اتخذ الموت أداة للاعتبار وإسداء النصح فبقى مستسلماً أمام سطوة الموت. كذلك تطرّق ناصرخسرو إلى هذا الموضوع في شعره الزهدى وآمنَ بجمية الموت معتمداً في هذا المجال على الأسس الدينية فظلّ ينصح الإنسان بالترؤد من الصالحات والاستعداد للرحيل الأعظم.

الكلمات الدليلية: الحياة والموت، أبو العتاهية، ناصرخسرو، الأدب المقارن.

* - تاريخ الوصول: ١٣٩٢/٠٢/١٦ تاريخ القبول: ١٣٩٢/١٠/٠٨

عنوان بريد الكاتب الالكتروني: yadollahi-a@yahoo.com

١- المقدمة

تعتبر قضية الحياة والموت من الموضوعات التي شغلت بال الإنسان منذ الأزمنة الغابرة، وضربت هذه الظاهرة بجذورها في كيان الإنسان وافتشرت مساحة كبيرة من ذاكرته وتعلّق تفكيره ومعتقداته وسلوكياته بهذه الفكرة. فمن ثمّ فكّر في الموت وتأمله وفي النهاية وصل إلى أنّ الموت حقيقة محتومة لا مناص منها ومورد لا بدّ من وروده «كما أنّ الموت انقطاع لهذه السلسلة المتصلة من الأيام والليالي التي تسمّى الحياة» (الشورى، ١٩٩٥م: ١٤). لقد وقف الشعراء والأدباء تجاه هذا اللغز المعقّد عاجزين عن فهم رموزه وما تنطوى عليه هذه الظاهرة من الأسرار المكتومة والدقائق، وذلك لأنهم تمتعوا بمواقف نافذة عميقة تدعمها الحقائق والمسلمات أكثر من الآخرين.

بما أنّ العلاقة الجدلية بين ثنائية الحياة والموت تجعل الحياة مرادفة للموت والموت مرادفاً للحياة حيث كل لحظات الحياة تحمل في طياتها معنى الموت والفناء، فلا غرو أن يتحير الإنسان في أمر هذا اللغز المعقّد الذي ينتهي به إلى العجز عن مواجهة هذه الحقيقة الثابتة. فمن هذا المنطلق، أزلت الإنسان وبعثت في نفسيته الشعور بالخوف فليس «أفسى على الموجود الذي يملك الحزبة ويحجّ إلى الأبدية وينزع نحو اللانهاية، من أن يشعر بأنّ حرّيته حدوداً وأنّ الزمان ينشب أظفار الفناء في عنقه، وأنّ التناهي هو نسيج وجوده» (زكريا، د.ت: ١٧).

إنّ المتأمل في هذه الثنائية يجد أنّ معظم الناس يتجاهلون قضية الحياة والموت وهذا لا يعنى أنّها ليست مهمّة، وأنّها ليست قائمة، بل يتهربون من مواجهتها، ولا يفطنون إليها، إلا في غمرة الهمّ الذي هو تربة خصبة لمثل هذه الخواطر الحالكة (شاهين، ١٩٨٠م: ٢٧٧).

اعتمدنا في البحث هذا على المدرسة الأمريكية من مدارس الأدب المقارن عثوراً على أوجه الاختلاف والاشتراك لهذه الثنائية في شعر أبي العتاهية وناصرخسرو القبادياني.

١-١-١- خلفية البحث:

اهتمّ الباحثون بشعر أبي العتاهية وناصرخسرو من جوانب مختلفة وقاموا بدراسات قيمة في هذا المجال، لكنهم لم يدرسوا ظاهرة الحياة والموت في شعرهما خاصة في إطار الأدب المقارن، فلم تجر دراسة مستقلة قائمة بذاتها حتى الآن في شعر هذين الشاعرين حول هذه الثنائية. أخيراً درس الباحثان شعر هذين الشاعرين من منظور الزهد في بحث نشر بجامعة كرمانشاه تحت عنوان «مقارنة بين أبي العتاهية وناصرخسرو في شعر الزهد». لم يتطرق الباحثان في بحثهما إلى موضوع الحياة والموت في شعر هذين الشاعرين، بل درسا شعرهما من جانب النزعة الزهدية وبواعثها وما ساق الشاعرين مساق التعبير عن الشعر الزهدي. يحاول هذا البحث تسليط الأضواء على موقفهما من هذه الظاهرة حتى يصل إلى أفضل نتيجة من الصراع المرير بين الحياة والموت عندهما.

٢-١- منهج البحث

اعتمدنا في إعداد هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي وذلك من خلال الإشارة إلى البواعث البيئية والدوافع الفكرية والدينية وما تركته من بصمات واضحة في مقطوعاتها الشعرية. يمهّد هذا البحث أرضية مناسبة للتعرف إلى ما في بيئتهما من الظواهر المختلفة كالخلفية والاجتماعية والسياسية ومدى تأثيرها في مواقف الشعاعين الزهدية وظهور إنتاجهما الشعري.

بما أنّ أبا العتاهية وناصرخسرو يُعتبران في الأدب العربي والفارسي من رواد فكرة الزهد فحاولنا في هذا البحث أن نتطرق إلى دراسة ثنائية الحياة والموت في شعرهما مع أنّنا نعلم أنّ موضوع الحياة والموت من أهمّ المحاور الزهدية التي يتطرق إليها الشعراء الزهاد. لقد أطلّ أبا العتاهية وناصرخسرو الكلام عن الحياة والموت خاصة عند أبي العتاهية فيتضح لنا من خلال دراسة الحياة والموت في شعرهما أنّ مفهوم الموت وما يتعلق به يختلف كلّ الاختلاف لديهما. ففي حين نراها عند أبي العتاهية سطحية لا تأتي بفكرة أو فلسفة جديدة نجدها عند ناصرخسرو مغلفة بمبادئ فلسفية.

٣-١- أهداف البحث:

يتناول الأدب المقارن دراسة النصوص المختلفة والآراء المتضاربة عبر الثقافات والحضارات المختلفة ويهتمّ بأنماط الترابط وأساليبه بين الآداب طيلة الزمان والمكان. انطلاقاً من هذا الموقف، يمهّد هذا البحث الأرضية المناسبة للتعرف إلى هذين الشعاعين الزاهدين وما أثار في تكوين نزعتهما الدينية حول الحياة والموت وبواعثها. يحاول هذا البحث توطيد الصلات أكثر من قبل بين الأدبين العربيّ والفارسيّ.

يستهدف البحث دراسة ظاهرة الحياة والموت من خلال أشعار أبي العتاهية وناصرخسرو الزهدية وكيفية تطرّفهما إلى هذا الموضوع لنفهم هل كان هذا الموضوع مجرد فكرة عابرة خطرت بذهنهما أم كانت تدعمها الأسس الفكرية والفلسفية أو الدينية وهل كانت فكرة الموت على صلة وثيقة بالحياة الدنيا أم تعارضها وتقابلها عند الشعاعين ومدى تأثير هذه الفكرة في اتجاههما نحو إنشاد الشعر الزهدى.

٢- نظرة إلى حياة أبي العتاهية وناصرخسرو

يعتبر إسماعيل بن قاسم بن سويد بن كيسان الملقب بـ «أبي العتاهية» من أبرز وأهمّ الشعراء العراقيين ولد وترعرع في حضن الأدب في العراق. إنّ العراق منذ قدّم العصور كان بمثابة بؤرة هامة نشأ فيها ونما كثير من الشعراء والأدباء والتيارات الأدبية والمذاهب الفكرية والعقيدية. ولد الشاعر سنة (١٣٠هـ) وتوفّي في (٢١١هـ)، وكان مشتاقاً إلى الشعر والأدب منذ نعومة أظفاره (الأصفهاني، ١٩٨٦م: ٣).

إذا أردنا الوقوف على حياة الشاعر الأدبية والفكرية فعلينا أن نمنع النظر في شطريها المختلفين فتتقسم حياته الأدبية والفكرية قسمين: قسماً مضى في الحياة العابثة واللاهية فانكب الشاعر فيه على المذات الجسدية والافتنان

بملهيات الدنيا، فلم يكثر بما جاء الدين الحنيف من التعاليم السمحة وهو في عنفوان الشباب، وشطراً آخر انصرف فيه عن تلك الحياة الماحنة وخصّص أدبه بالترهد والتنسك وعهد على نفسه أن يمضي بقية الحياة في الإنابة إلى الله تعالى والاستغفار مما اقترف في الحياة من الذنوب والآثام وبذلك بدأت صفحة مشرقة جديدة في حياته الأدبية والفكرية والعقيدية. فظلّ يذكّر بالموت والفناء للاعتبار وإسداء النصح و«استطاع من جزاء ذلك أن يشقّ الطريق للأخلاقيين الفرس ك «ناصرخسرو»» (آربري، ١٣٧١ هـ : ٤٦).

يعتبر الحكيم معين الدين ناصر بن خسرو القباديانيّ الملقّب بـ «الحجّة» الذي ولد بقرية «قباديان» من أعمال «بلخ» سنة ٣٩٤ هـ من الوجوه المتألّفة في الأدب الفارسي (مستوفى، ١٣٣٤ هـ : ١١١). نشأ ناصرخسرو في أسرة غنية من أسر مالكي الأراضي الفرس وكانت أسرته تمتلك الأراضي والمزارع الكثيرة، كما يشغل بعض أفرادها بالوظائف الحكومية والمناصب الديوانية (دفترى، ١٣٧٥ : ٢٥٠-٢٤٩). اتصل ناصرخسرو في بداية الحياة بلاط الحكام والوزراء وحزّب طيلة حياته دولتين كبيرتين: الغزنوية والسلجوقية، فاتصل بهما بغية العثور على ذبوع الصيت والتمتع بالصلوات والجوائز. تبين لنا حياة الشاعر بجميع جوانبها من خلال إجمالة النظر في شطريها المختلفين: شطر فُضي في البذخ والترف والأخذ بالمغريات والملهيات الجسدية فانكب الشاعر حريصاً على نعيم الدنيا الزائل حتى ملّ منها، وشطر آخر أقبل فيه على الزهد والنسك وترك تلك الحياة العابثة اللاهية وخصّص بقية العمر بالطاعة والإنابة والاستغفار رجاء الرحمة والغفران. هذه الصحوة الروحية جعلته يبحث عن ضالّته في الديانة الإسماعيلية (هرمان، ١٣٥٦ هـ : ١٤٥).

٢-١- فكرة الزهد عند أبي العتاهية وناصرخسرو

يُستنتج من خلال دراسة ظاهرة الزهد في شعر أبي العتاهية أنّ زهده كان بمثابة ردّ فعل عنيف من قبل الطبقات والشرائح المتدينة ضدّ العبث والمجون والخلاعة، وكان زهده وتقشّفه يصوّر في أكمل صورته ماضيه المليء بالفسق واللّهو. امتلاً شعره الزهدي برّد فعل شديد تجاه الطبقات الغنية والمثرية من الذين يبنون القصور الفخمة والمشيدة، فالشاعر يدعو أبناء جنسه إلى ترك الملذات ومغريات الدنيا ومفاتها ويذكرهم بالموت والرحيل الأعظم قائلاً:

يا مَنْ بَنَى القَصْرَ فِي الدُّنْيَا وَشَيَّدَهُ
لَا تَغْفَلَنَّ فَإِنَّ الدَّارَ فَانِيَةٌ
والموتُ حَوْضٌ كَرِيهٌ أَنْتَ وَارِدُهُ
أَسَسْتَ قَصْرَكَ حَيْثُ السَّيْلُ وَالغَرِقُ
وَشَرُّهَا غُصَصٌ أَوْ صَفْوُهَا رَنُقُ
فَانظُرْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ المَوْتِ يَا مَتَّقُ

(أبوالعتاهية، ١٩٦٥ م : ٢٤٨)

فالعاصفة التي دوت في كيان الشاعر وساقته مساق اختيار الزهد محوراً أساسياً لفنّه ولحياته، هي التي صورت في أحسن صور تلك المشاعر الحساسة عند أبي العتاهية تجاه قضية حتمية الموت. وهذا الموضوع من المسائل الهامة التي شغلت باله طيلة الحياة، فراه دائماً يشعر بفداحة هذا الموقف قائلاً:

عَلِمِي بِأَيِّ أَذْوُقِ الْمَوْتِ نَعَصَ لِي
طَيْبِ الْحَيَاةِ فَمَا تَصِفُو الْحَيَاةَ لِيَا
إِنَّ الرَّحِيلَ عَنِ الدُّنْيَا لِيُرْعِجُنِي
إِنْ لَمْ يَكُنْ رَائِحاً بِي كَانَ مُعْتَدِيَا

(المصدر نفسه: ٤٣٣-٤٣٢)

يذكر بالموت على مدى الحياة ويصف أهواله ويعلن بجمية الموت وقضائه على كافة الوري. فالناس جميعاً يسلكون مسلك الهلاك والفناء ويشرفون على شفا حفرة من الزوال وسيصبحون عن قريب أجساداً هامدة:

لِدُؤَا لِلْمَوْتِ وَابْتُوا لِلْخِرَابِ
فَكُلُّكُمْ يَصِيرُ إِلَى ذَهَابِ
لِمَنْ نَبْنِي وَنَحْنُ إِلَى تُرَابِ
نَصِيرُ كَمَا خُلِقْنَا مِنْ تَرَابِ
أَلَا يَا مَوْتُ لَمْ أَرْ مِنْكَ بُدّاً
أَبَيْتَ فَلَا تَحْيِفُ وَلَا تُحَايِي

(المصدر نفسه: ٣٣)

كذلك نعلم أنّ ناصر خسرو يعتبر في الأدب الفارسي من الشعراء الذين أمضوا حقبة وسيعة من حياتهم في اللهو والمجون، ثم ترك تلك في الأربعين من عمره الحياة الماحنة العابثة وانكب على الحياة المليئة بالحكمة والدين والتقوى وندم على تلك الحياة المثقلة بالذنوب والمعاصي. إنّ من أمعن النظر في شعر ناصر خسرو يجد أنّه لا يوجد أثر من المظاهر الزهيدة التي تجلت عند أبي العتاهية من لبس الصوف واعتزال الناس والميل إلى الوحدة، بل كان الشاعر على صلة وثيقة بالناس - لا نقصد جميع الناس، بل الذين لم يكونوا من الجهلة والعقلة والذين أحموه بالإلحاد والزندقة - خاصة عندما التجأ إلى «بمكان»، وأراد أن يخلص الناس من تلك الحياة المخجلة والمجتمع المخزى الذي عاشوه. فمن ثم نجد في شعره أمرٌ وألذع الانتقادات الدينية والسياسية والأخلاقية تجاه العادات التي سادت المجتمع آنذاك.

في الحقيقة كان زهده بمثابة ردّة فعل عنيف أمام ما جرى في عصره من النفاق والتزوير والاعتداء على الحقوق والمحاكاة العمياء خاصة في القضايا الدينية ويعدّ تعرفه إلى الديانة الإسماعيلية نقطة التحول عنده، إذ لانعرفه بمثابة إنسان أمضى فترة من حياته في البذخ والترف والمجون فقط، ثم أناب وانصرف عنها نتيجة البواعث المختلفة، أو نعتبه شاعراً زاهداً أنشد في الزهد وما يمت إليه بصلة فقط، بل نعتبه حكيماً وفيلسوفاً وأخلاقياً ملاً آثاره بالنظريات والآراء الحكمية والفلسفية التي لم يكن للمجتمع سابق عهد بها، وهذا يتجلى بصورة واضحة في آثاره المنظومة والمنثورة.

٢-٢- الخوف من الموت عند أبي العتاهية

يستحوذ الخوف الشديد والرهبنة من الموت على نفسية أبي العتاهية، وهذا ما جعل الشاعر يعبر عن هواجسه الدفينة ومكوناته النفسية. فعندما يتحدث عن الموت والفناء فإذا هو يتجه نحو الإفصاح عن رهبة الموت والاعتبار والتحذير منه والاستعداد التام للرحيل الأعظم من خلال التزوّد بصالح الأعمال ونبد الدنيا ومغرياتها بكبح النفس الطاغية وتمارينها على الرياضة والانصراف عنها و الاضطراب الجميل والعكوف على النزر اليسير من الحياة والقناعة.

يقصّر الشاعر في ثنايا قصائده شبح الموت الذي يلاحقه أينما يتّجه، فلا غرو أن تكتظّ مقطوعاته الزهدية بتصوير الموت ومخاوفه، فالشاعر يخافه ويغتمّ إثر ذكره ويقول:

أرى الموت لي حيثُ اعتمدتُ
سئليجثني حادي المنايا بمن مَضَى
فأصبحتُ مهموماً هناك حزينا
أخذتُ شمالاً أو أخذتُ يمينا

(المصدر نفسه: ٣٨٣)

لقد أكّد أبو العتاهية في شعره على ذكر الموت تأكيداً شديداً مما جعل جماعة من خصومه يتهمونه بالزندقة، وقالوا: إن كان مؤمناً فلماذا يخاف الموت؟. فسلم الخاسر، رقيق بشار بن برد، هو الذي اتهمه بأنّ الزهد عنده رياء ونفاق (الأصفهاني، ١٩٨٦م، مج ٤: ٧٥) وإبراهيم بن المهدي المغنّي هو الذي اتهمه بالإلحاد والزندقة والإكثار من الموت دون البعث والجنة والنار (نفسه: ١٠١). فإنّ أهمّ ما يستدلون به على زندقة أبي العتاهية هو أنّه لم يذكر في شعره البعث والجنة والنار. يرجع بعض النقاد إكثار أبي العتاهية من ذكر الموت إلى أنّه يرى فيه السبيل الوحيد للمساواة بين الناس تحت أطباق الترى (الكفراوى، ١٩٧٢م: ١١٥). ممّا لا ريب فيه أنّ الشاعر أراد من خلال التذكير بالموت وتصوير أهواله ومخاوفه تسليّة الناس وتعزيتهم وتمهيد أرضية مناسبة لتقدم النصيح والموعظة قائلاً في نفسه: لماذا لا يعتبر الناس من الموت وجرائره رغم أنّهم يعيشون في الغي واللامبالاة طالباً بتحذيرهم من أهوال الموت وغوائله.

يتضح لنا من خلال مقطوعاته الزهدية أنّ الخوف من الموت وأهواله جرى في إطار الزمن والناس وهما من أهمّ القوالب التي تدور فيهما صورة الحياة والموت. وربما يكون وعيه التأمّ بالناس وأحوال الزمن من أهمّ الدواعي التي ساقّت الشاعر مساق التعبير عن الموت، نراه يقول:

أنظر لِنَفْسِكَ فالْمَيْتَةُ حيثُ ما
لِلْمَوْتِ دَاعٍ مُزِعِجٌ وَكَأَنَّهُ
وَجْهَتٌ واقِفَةٌ هناكَ جِذاكا
قد قامَ بينَ يَدَيْكَ تُمّ دَعَاكا

(أبو العتاهية، ١٩٦٥: ٢٦٣)

لقد استحوذ الخوف من الموت عليه، فأنساه كلّ شيء سواه، فيقول:

وأصْبَحَ لي في المَوْتِ شُغْلٌ عن الصِّبا
كَيْفَ أَلْهُو وَكَيْفَ أَسْلُو وَأَنْسى الـ
وفي المَوْتِ شُغْلٌ شاغِلٌ لِذَوِي العَقْلِ
مَوْتٌ والمَوْتُ رائِحٌ بي وغادِ

(المصدر نفسه: ١١٤-٢٩٣)

كان الشاعر يئنّ تحت أقدام الموت الثقيلة التي عكّرت عليه كيانه وما يحرص عليه في الحياة، ويقول:

أيا هادِمَ اللَّذاتِ ما منك مَهْرَبٌ
كأني برهطي يَحْمِلونَ جَنائِني
تُحاذِرُ نَفْسِي منك ما سَيُصِيبُها
إلى حُفْرَةٍ يُحْنِي عَلَيَّ كَثِيبُها

(المصدر نفسه: ٤٨)

يعتبر الشاعر قضية الموت بين الناس مصدراً ثراً للإفصاح عن التعزية والهدوء، فيقول:

ألموتُ بينَ الخلقِ مَشْتَرِكُ لا سُوقَةٌ بَاقِي وَلا مَلِكُ

(المصدر نفسه: ٢٦٧)

إذا أمعنا النظر في تضاعيف المقطوعات الزهدية عند أبي العتاهية نجد أنّ فكرة الحياة والموت والبقاء والفناء التي افترشت مساحة كبيرة من أدبه تملّت كأداة للتخلص من الضغائن والأحقاد التي اعتصرت نفسه من قبل الناس والمجتمع الإنساني، فهذا هو الشاعر الذي يصور الموت بمثابة الرحي التي تطحن كل الناس ولا تذر على الأرض منهم دياراً:

الناسُ في غَفَلاتِهِم وَرَحَى المِيتَةِ تَطْحَنُ
ما دونَ دائرة الرّدى حصنٌ لِمَن يَتَحَصَّنُ

(المصدر نفسه: ٣٨١)

يتضح أنّه يستعدى الموت على الناس ويجعل لهم أقسى أنواعه إبادةً، وهو الطحن. يتكوّن هذا الموقف في ذهنه كلّما أثاره بعض أفراد الطبقة العليا (الكفراوى، ١٩٧٢: ٦٤). ومن أمثلة ذلك قوله في القاسم بن الرشيد حين تجاهله وهو ماژر به:

يَتِيهُ ابنُ آدمَ من جَهله كأنَّ رَحَى الموتِ لا تَطْحَنُه

(أبوالعتاهية، ١٩٦٥: ٤١٤)

٣-٢- بواعث الخوف من الموت عند أبي العتاهية

يستنتج من خلال أشعار أبي العتاهية الزهدية أنّ خوفه من الموت ينبع من عوامل عدّة، منها ما يعود إلى الظروف السياسية التي عاشها وما قامت به الدول الغاشمة طيلة حياتها من القتل وإهراق دماء الأبرياء وكمّ الأفواه وما واجهه الشاعر من انهيار دولة بعد أخرى وما يعقبها من الويلات والمصائب، ومنها ما ينبع عن إقبال رجال الدولة والأمراء على مفاتن الدنيا ومباهجها. وهذا ممّا حمله أن يتخذ الموت بمثابة قاسم مشترك بين السوقة والملوك لا فرق بينهم، ومنها ما يعود إلى ما تحمّله الشاعر من لوم اللائمين وتأنيبهم من جرّاء عقدة النقص وضعة النسب بين شرائح الناس المختلفة. فهذا كلّهُ هو الذى جعل الشاعر يتخذ الموت وأهواله بمثابة أداة طبيعة للحصول على التعزية والتسلية ومن أهمّ ملامح هذا الأمر ما نشاهده في شعره من وصف الأحداث والمقابر، فيخطبها مصوّراً ما فيها من الوحشة والاضطراب وينايجي بأنماط الحوار المختلفة التي تدلّ على إسداء النصح والحثّ على الاستعداد للمفاجئ للموت والرحيل عن دار ممّز. فكان الشاعر على ثقة بأنّ الدنيا ليست على حالة واحدة وديدها عدم الثبات والاستقرار وإن هي إلاّ دار قلعة لاتليق بالاطمئنان.

أقام محمد عبدالعزيز الكفراوى بين قضية الموت والضعف الجسمانى أو الأدبى والاجتماعى عند أبى العتاهية صلات وثيقة. يرى أنه كان من الجانب الاجتماعى فى نهاية الضعف والفتور، كما أن اضطراب أعصابه يدل على أنه كان ضعيفاً من الجهة البدنية، فضلاً عن ذلك رؤيته لما أرقى فى الكوفة من دماء زمن طفولته الأولى بسبب مقاومتها للعباسيين. كل ذلك أدى إلى ظهور أرضية مناسبة لنمو الشعور بالخوف الشديد من الموت، فالشاعر قبل أن يهدد الناس بالموت ويتمناه لهم قد ظلّ يرتعش ساعات وأياماً طوالاً أمام شبح غوله المخيف (الكفراوى، ١٩٧٢: ٦٦، أنظر: عانوي، ١٩٦٢م: ٩٩). يعقبه غول الموت وهو فى صراع مرير معه:

لِلْمَوْتِ غَوْلٌ فَكُنْ مَا عِشْتَ مُلْتَمِسًا
مِنْ غَوْلِهِ حَيْلَةً إِنْ كُنْتَ مُخْتَلًا

(أبوالعتاهية، ١٩٦٥: ٣٠٢)

يتضح لنا من خلال ما سبق أنّ الشاعر أصيب بالخوف الشديد والبالغ من الموت وما ينتظره من الثواب أو العقاب فى تلك الحياة الخالدة، فالموت بمثابة رحي تطحن كل أبناء البشر لا تبقى منهم ولا تذر. فاصطبغ مخزونه الفكرى والثقافى بما شاهده طيلة الحياة من المصائب والمشاكل العويصة التي لم يستطع الشاعر أن يحلّها.

لقد ميّز «فرويد» بين نوعين من القلق: قلق موضوعى هو استجابة واقعية للخطر المدرك والناجم عن البيئة، ويوازى هذا المفهوم للقلق مفهوم الخوف، أما النوع الثانى فهو قلق عصابى ناجم عن صراع لا شعورى داخل الفرد، لا يكون الفرد عادة على وعى بأسبابه (عدس وآخرون، ٢٠٠٢م: ٢٧٠)، ويبدو أنّ قلق أبى العتاهية من النوع الثانى أي القلق العصابى.

فتبين لنا من خلال ما تقدّم من الأبيات أنّ أبالعتاهية يخاف الموت خوفاً شديداً وتقوم نظرتة على الرهبة منه وشموله وغدره، وربما يكون هذا الخوف الشديد من الموت عنده ناتجاً عن جنبه وضعف أعصابه. نجد أنّ أبالعتاهية لا يبدل إلى منيته بنفس مطمئنة ظامئة إلى لقاء الله تعالى، ولكنه يبدو فى صورة المحقق الخائف من الموت وأحواله (خلف الله، ١٩٤٧م: ٩٦، أنظر: عبدالغنى الشيخ، ١٩٨٣م: ٩٨).

حاول ناصر خسرو أن يصوّر فى شعره الحياة - خاصة الحياة النبيلة الشريفة - أكثر من الموت، فظهرت مواقفه تجاه الحياة على شكل طبقات ترسّخت فى ذاكرته، لأنّ الحياة تبشّر فى طياتها بالبقاء والنشاط والحيوية خاصة حينما امتزجت بالمواقف والنظرات الحكيمية والعقلانية والقيم النبيلة.

لقد رافقت شعره قضية الإيمان العميق بالموت مع فكرة عدم الاغترار بالدنيا والإقبال عليها، خاصة أنّ التعاليم الإسلامية تحدّر من الاغترار والافتنان بالحياة الدنيا، فضلاً عن الآيات الكثيرة الواردة فى القرآن الكريم التى تحضّر الإنسان على عدم الافتنان بنعيم الدنيا الزائل وملهياتها. قد ورد هذا الموضوع فى الروايات الإسلامية التى تشير إلى

الموضوع نفسه، فمنها قول النبي (ص) حيث يقول: «كن في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابر سبيل وعدّ نفسك في أهل القبور» (ترمذى، د.ت: ٧٥٦).

إذا أمعنا النظر فيما يمتّ بصلة إلى قضية الموت في ثنايا شعر ناصر خسرو نجد أنه لا يشغل باله للكشف عن الموت وحلّ لغزه وعندما يتحدث عن الموت يتجاوز الموضوع عابراً. يعتقد الشاعر بأنّ الذين اهتمّوا بالدنيا ونعيمها الزائل يصعب عليهم هجر الدنيا ونبتد ملذّاتها، فمن تمّ يعدّ الموت بمثابة ما يخلص الإنسان من سجن الجسم، ولا يليق بالإنسان العاقل أن يفرغ ويغتمّ. أراد الشاعر بهذا ألاّ يغرّ الإنسان بالدنيا ومباهجها الزائلة فحاول أن يجعلها أكبر همّه وقصارى أمله ويغضّ البصر عن تلك الحياة الكريمة النبيلة التي تليق بالإنسان والتي تمتلئ بالأسس السامية والثواب الدينية.

ذهب الشاعر إلى أنّ السبب الرئيسيّ في خوف الناس من الموت هو الخوف من نهاية الحياة الدنيا وانقطاع الأيدي من الملذّات والمهليات، مع أنهم نسوا بقاء الإنسان في تلك الحياة الخالدة:

چون گشت یقین که جان نمیرد آسان برهی ز مرگ آسان

(قبادياني، ١٣٥٧ هـ : ٣٨٥)

أى: إن تثق ببقاء الروح يسهل عليك الموت.

وجدنا من خلال ذلك أنّ نظرة هذين الشعارين إلى الموت تختلف كلّ الاختلاف، ففي حين نراها عند أبي العتاهية سطحية لا تدعمها المبادئ والأسس الفلسفية أو الفكرية نجدها عند ناصر خسرو مغلفة بإطار فلسفي.

٣-٢-١ - علاقة المشيب بالموت عند أبي العتاهية وناصر خسرو

جدير بالذكر أنّ الشاعر تأثّر في قضية الموت بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فظهر هذا التأثير في استلهام قول الرسول (ص) حيث يقول: «أكثرُوا من ذكر هادم اللذات»، يعنى الموت (ترمذى، د.ت، ج ٤: ٥٦٧). من هنا نرى أنّ أبا العتاهية يتفق والنظرة الإسلامية في إلحاحه على ذكر الموت لتذكير الناس بأنّ الحياة قصيرة وفانية، فعلى الإنسان أن يتخذها جسراً للعبور إلى الآخرة، ولكن دون أن ينسى نصيبه من الدنيا، ففكرة الموت وتصوير الشيخوخة في تضاعيف مقطوعاته الزهدية ساقته مساق التخلّي والانصراف عن متاع الدنيا الزائل. لقد بكى الشاعر على فقدان الشباب وعهد النضارة والطراوة متحسراً على أيام الشباب وتلك الحياة المضيفة والمشرقة. فالصراع بين الشباب والمشيب في شعره يدلّ على ثنائية الحياة والموت أو البقاء والفناء. الشباب هو مظهر الفرح والقدرة والبقاء والشيخوخة صورة من صور الضعف والفتور والتخلّي عن العبث واللهو وهي تؤذّن بقرب الموت. لا ريب أنّ هذه الكراهية من المشيب تصور في طياته فكرة عن الموت وقرب النهاية، فالشاعر يعاني من استحالة عود الأيام الماضية التي اكتظت بالتصايب والمرح والنشاط، فيعتبر الشاعر المشيب إحدى الميتين فيقول:

الشَّيْبُ إِحْدَى المَيْتَيْنِ تَقَدَّمَتْ
إِحْدَاهُمَا وَتَأَخَّرَتْ إِحْدَاهُمَا
فَكَأَنَّ مَنْ نَزَلَتْ بِهِ أَوْلَاهُمَا
يَوْمًا فَقَدْ نَزَلَتْ بِهِ أُخْرَاهُمَا

(أبوالعتاهية، ١٩٦٥: ٣٥٣)

إنَّ حديث الشاعر المستفيض عن الحياة والموت والمصير يذكرنا بما كان يجري على ألسنة زهّاد العصر الأموي في خطاباتهم الوعظية من أمثال مسروق بن الأجدع وأويس القرني والربيع بن خثيم (خليف، ١٩٨١م: ١٩٤، ١٨٨، أنظر: العشماوي، ١٩٧٨م: ١٠٣)، مع فرق واحد هو أنّ أبالعتاهية قد اتسمت أشعاره بطابع سوداوي وتشاؤمي ينم عن الرهبة والخوف الشديد، فيعدّ خوفه من الموت نمطاً من أنماط الموعظة لتخويف الناس ابتغاء عدم تشبههم بمغريات الدنيا الفاتنة والغفلة عن الحياة الأبدية الخالدة، وربما يكون خوفه الشديد من الموت يصدر عن إقباله على الدنيا الذى ترسخ في كيانه منذ الشباب لما تمتع في تلك الفترة من الملاهى والأموال الهائلة، فيقول:

كُلُّنَا يُكَيِّرُ المَيْدَمَةَ لِلدُّنْيَا
أَجْنُ بِرَزهَرَةِ الدُّنْيَا جُنُونًا
وَكُلٌّ بِحُبِّهَا مَفْتُونٌ
وَأُفْنِي العَمَرَ فِيهَا بِالتَّمَيُّنِ
وَلَوْ أَنِّي صَدَقْتُ الرُّهْدَ فِيهَا
قَلْبْتُ لِأَهْلِهَا ظَهَرَ المَجْرُنِ

(أبوالعتاهية، ١٩٦٥: ٣٧٦)

يتضح لنا من خلال أشعار أبى العتاهية الزهدية حول ثنائية الحياة والموت أنه أكثر من ترداد هذا الموضوع في شعره حتّى آل به الأمر إلى التشاؤم واللاجودية في الحياة الدنيا، فعلى الإنسان أن ينتظر شبح الموت في كل آنٍ ولحظة. لقد تجاوز الشاعر في هذا المضمار الحالة المألوفة والطبيعية ورمى بنفسه في أحضان الخوف الشديد والضغط النفسى والروحي. فعلى مذهب الشاعر كل بناء سيؤول إلى الهدم والخراب وكل ولد سيكون جسداً بلا حركة. نجد الشاعر دائماً يدعو أبناء البشر إلى التفكير والوعظ والنصح ويذل قصارى جهوده المستميتة ليخلص نفسه من الموت وأحابيله.

أما ثنائية الشباب والمشيب عند ناصر خسرو فتحضر لنا صوراً حديثة تتمتع بالحياة وتظهر لوحات فنية تعبّر عمّا حلّ بالشاعر في تلك الفترة النهائية من الحياة. لقد أحس الشاعر بثقل الكاهل وتعاقب الوقائع والحوادث مما جعله متحدثاً عن رجوع أيام الشباب المليء باللهو والعبث والنضارة. يتحلى الشاعر من خلال هذه المقطوعات كواعٍ منيب يتحدث عن عودة تلك الأيام الحلوة في قالب يدلّ على الندامة والحسرة.

لقد وردت هذه الثنائية في شعر ناصر خسرو ستّ عشرة مرّة وتميّزت لديه بخصائص عدّة، منها أنّ الشاعر عندما يعبّر عن أيام الشباب وما كان فيها من المرح والنشاط يسوقه هذا مساق التحدّث عمّا اتّابه عهد الشيوخوخة من الضعف والفتور والخذلان، فيقبل على الموعظة وإسداء النصح تنبيهاً لما في الدهر من الغدر والخيانة وعدم الاستقرار. ثمّ يصوّر كيفية كماله وهدايته في أيام المشيب بواسطة الدين الحنيف ويؤشيد بالعقل والدين ويعتبرهما

ملادين آمنين أمام ما جرت في الدهر من الوقائع المؤلمة وأدرج في ثنايا هذه الثنائية تجاربه الروحية والنفسية التي اكتسبها في هذين العهدين (عهد الشباب وعهد المشيب) مما جعله رجلاً محتكاً ذاق حلو الحياة ومرّتها.

أى: لقد جعلني جيش الشيخوخة وقافلة الدّل مغولياً. إذا حلّ جيش بمكان يُسمع فيه الجلب والأصوات، أما جيش المشيب فأفحمني. لا جعلت الدنيا مسرورة أبداً، فإنّها بدّلت سروري حزناً والعزّة ذلاً.

لشگر پیری فگند و قافله دُلّ	ناگه بر ساعدين و گردن من غل
غلغل باشد به هر کجا سپه آید	وين سپه از من بيزد يكسر غلغل
شاد مبادا جهان هرگز كه او كرد	شادی و عزّ مرا بدل به غم وذل

(قبادياني، ١٣٥٧: ٣٤١)

٣-٢-٢- صلة الحياة والموت بالنصح والاعتبار عند أبي العتاهية وناصر خسرو

لا ريب أنّ هذين الشاعرين عبّرا تعبيراً صادقاً عن تجاربهما الروحية طوال الشطرين المختلفين من الحياة عهد الشباب والشيخوخة، فحاولوا أن يُضفيا على شعرهما نوعاً من الحكمة والتأمل واعتبرا المشيب مفهوماً دينياً، إذ جعلوا الحديث عنه كأداة لدعوة الآخرين إلى الإنابة ونبذ الدنيا والإقبال على كلّ عمل من شأنه يؤدّي إلى الفوز بالحسنات والصالحات والتقرب إلى الله تعالى، فمن تمّ يعتبران الشيخوخة باعثاً قوياً لتقدم النصح والعظة لإعادة الحساب مع النفس وتقويم السلوك والعمل. انطلاقاً من هذا الموقف، ينصحان الإنسان بأخذ العبر والمواعظ وردّ النفس عن غيّيها وتصحيح مسار الحياة وحاولوا أن يفصلا بين الصراط المستقيم الذي لا وعودته فيه والطريق الذي يمتلئ بالعقبات الكؤودة، فتعتبر الحكمة وتقدم النصح والتفكير في العاقبة من أهم الذرائع التي يستخدمانها لنيل المراد والتعبير عن مكنوناتهم. ومن أمثلة ذلك قول أبي العتاهية:

فَمَا لَكَ لَيْسَ يُعْجِلُ فَيْكَ وَعَظٌّ	وَلَا زَحْرَ كَأَنَّكَ مِنْ جَمَادٍ
سَتَنْدُمُ إِنْ رَحَلْتَ بِغَيْرِ زَادٍ	وَتَشْقَى إِذْ يُنَادِيكَ الْمِنَادِي
فَلَا تَأْمَنُ لِذِي الدُّنْيَا صَلاَحاً	فَإِنَّ صَلاَحَهَا عَيْنُ الفَسَادِ
وَلَا تَفْرَحْ بِمَالٍ تَقْتَنِيهِ	فَإِنَّكَ فِيهِ مَعكُوسُ المَرَادِ
وَتُبِّ مِمَّا جَنَيْتَ وَأَنْتَ حَيٌّ	وَكُنْ مُنْتَهَباً قَبْلَ الرُّقَادِ
أَ تَرْضَى أَنْ تَكُونَ رَفِيقَ قَوْمٍ	لَهُمْ زَادٌ وَأَنْتَ بِغَيْرِ زَادٍ

(أبوالعتاهية، ١٩٦٥: ١١٥)

كذلك نجد أنّ موقف ناصر خسرو من الحياة والموت يتسم بالإعراض عن الدنيا والتضحية بنعيمها وإيثار الآخرة عليها، فإنه أدرك تماماً حتمية الموت والزوال وما بعده من ثواب ونعيم للمؤمنين. اتخذ ازدراء الدنيا وهجرها والتحريض على طلب الحكمة والموعظة الحسنة وسيلةً للتذكير بالناس وتنبههم من غفلتهم وغييهم لئلا يرموا بأنفسهم في أحضان العبث واللهو. تمحور شعره في هذا المجال حول هذه المحاور: خداع الدنيا وتقلّب أحوالها-

تحقير الدنيا والتقليل من شأنها- اقتران الحكمة والنزعة العقلية والحكمية في الدنيا- الموت وما يتبعه من حساب- التمتع بشفاعة الأولياء والأنبياء في الحياة الأخرى- حتمية الموت وقوة سطوته.

لقد اتسم شعره الزهدي في هذا المجال بطابع ذم الدنيا والتقليل من شأنها للتعبير عن الرحيل عنها وعدم الافتنان بها، فمن ثم اتخذ الدنيا وما فيها من النعيم الزائل بمثابة موقف للعمل الدؤوب والتزود من الصالحات بغية التخلص من غدها. انطلاقاً من هذا الموقف، نجد صراعاً مريراً ومحتوماً بين الحياة والموت في خطابه الشعري في إطار تتجلى فيه مناقاة النفس والتحدث معها. يتضح من خلال أشعاره أنّ حياة الإنسان تنتهي بالموت والفناء وهذا الأمر ينم عن استسلام الشاعر الزاهد لسنن الحياة التي تصوّر في هذا المجال لوحات فنية جميلة تتسم بالحيوية والنشاط. من أهم ملامح هذه الثنائية في شعره، إسداء النصح والموعظة للناس حيث أنّها تعتبر من أهم الذرائع التربوية وأجمعها في إعداد الناشئين خلقياً ونفسياً، لأنها تسوقهم مساق التحلي بالثواب الدينية السامية والمكارم الأخلاقية.

كان ناصر خسرو على استعداد نفسي لأخذ العبر من الآخرين خاصّة المصادر الإسلامية حرصاً منه على تفادي الذنوب، فقام في شعره بإسداء المواعظ والعبر لتكوين الأثر الإيجابي في نفس المتلقي، «فصار معظم شعره في هذا المجال مجموعة من الأدلة والحجج العقلية معتمداً على العزوف عن الغزل واللهو والعبث» (زرين كوب، ١٣٧٥: ٢٧٧). ارتبطت فكرة الحياة والموت عنده بالرؤية الدينية وبما خلفته الأحداث الاجتماعية والسياسية في نفسه من الخيبة والحرمات إثر انغماس الناس في ملذات الدنيا ومغرياتها. فالتأمل في قضية الحياة والموت عنده ناجم عن صميم إيمانه وعقيدته الخالصة خاصة أنه يُعدّ داعياً دينياً، فقد ظهر هذا الأمر في شعره بصورة جلية حيث نجد أنّ الشاعر يرفض بشدة حبّه للدنيا ومباهجها الفانية ويحاول التخفيف من شدّة هذا الحرص والاستزادة ويدعو إلى تحقيرها وعدم الافتنان بها تحذيراً من مغبتها وتذكيراً بفنائها وعدم استقرارها، فأكثر من ذكر تلك الحياة التي تليق بالإنسان المؤمن وأطال التأمل فيها والحديث عن خداع الدنيا والبعث والحياة الأخرى.

يستنتج من شعره أنّ ذم الدنيا واحتقارها والتذكير بالموت والحياة تعتبر من أهم الروافد الفكرية والثقافية التي تقوى نزعة الزهدية، فحاولت مقطوعاته الزهدية تجسيد هذه الفكرة ودعمها بأنماط مختلفة، لأنّ البعض ذهبوا إلى أنّ هذه الطريقة الفكرية تجلّت عن فكرة ومواقف عابرة لا تدوم، وأما الآخرون فذهبوا إلى أنّ هذه الفكرة تدعمها الأسس الفكرية والمناهج الفلسفية العميقة - كما نجد ذلك عند الشاعر. هذه الفكرة تشتمل في طياتها على صور وملامح تحمل طابع التحذير من فوات الأوان واغتنام الفرص السانحة، فمن أجل ذلك تدعو أبناء البشر إلى المحاولات النفسية والإيمان بحتمية الموت والفناء وضرورة الانصراف عن الدنيا ومغرياتها والتزود بالصالحات. انطلاقاً من هذا الموقف، يعتبر الشاعر الدنيا جسراً يُوصل الإنسان إلى تلك الحياة الباقية الخالدة، فيقول:

(قبادياني، ١٣٥٧: ١٠)

أى: إنّ هذا العالم سلّم تجاه ذلك العالم، فيجب أن يُصعد على هذا السلم.

اعتبر الشاعر هذه الحياة الدنيا بمثابة تمهيد للتهيؤ والاستعداد لتلك الحياة الباقية، فما على الإنسان إلا التزود بالصالحات، لأنّ العالم الخالد بالنسبة إلى هذا العالم الفاني كالمرآة التي تبيّن لنا ما يجرى في ذلك العالم، فيجنى هناك البشر كلّ ما يزرع في هذا العالم. هو مزرعة الآخرة ولا يليق بالشاعر الزاهد أن يصاحب الدنيا الفانية:

آن جهان را اين جهان چون آينه ست نيک بنديش اندر اين نيکو مثال

(المصدر نفسه: ٧٣)

صحبت دنيا مرا نشايد ازيراك صحبت او اصل ننگ و مايه عارست

(المصدر نفسه: ٤٨)

أى: إنّ ذلك العالم بالنسبة إلى الحياة الدنيا مرآة، فأعزل الفكرة جيّداً في هذا المثال. لا تليق بي مصاحبة الدنيا، لأنّها أصل السبة والعار.

٣-٣- علاقة الموت بالثواب والعقاب عند أبي العتاهية وناصر خسرو

يعتبر إسداء النصح والإعراض عن الدنيا والتضحية بنعيمها وإيثار الآخرة عليها من القواسم المشتركة بين هذين الشعارين الزاهدين، فإنّهما أدركا حتمية الموت والزوال وما بعده من ثواب ونعيم للمؤمنين أو عقاب وعذاب للمجرمين. فاتخذوا الزجر والتخويف والإنذار وسيلة للتذكير وتنبية الناس من الغفلة والغيّ لئلاّ يرمون بأنفسهم في أحضان العبث واللهو.

انبعثت ثنائية الحياة والموت في نفسية ناصر خسرو وزعزعت كيانه لما يرى الشاعر فيها من هول الطامة الكبرى وما ينتظر الإنسان من ثواب أو عقاب. لقد أكثر الشاعر من ترداد هذا الموضوع ليكون باعثاً للقيام بكلّ ما يُقيم الإنسان مقام الجنة وينقّر عن كل فعل يسوق الإنسان مساق النار والسعير. التذكير بالقيامة وما يتبعها من العقاب أو الأجر هو الذى ساق الشاعر مساق التعبير عن هذا الصراع المرير بين الحياة والموت، فالشاعر يصور القيامة وأهوالها للمتلقى للتخويف والتذكير معتمداً على المفاهيم القرآنية فيقول:

آن دان به يقين كه هر چه كرده ستى امروز، به محشر آن فرو خوانى

زان روز بتسرس كاندرو پيدا آيد، همه كارهاى پنهانى

زان روز كه جز خدای سبحان را	بر كس نرود ز خلق، سلطانی
زان روز كه هول او بریزاند	نور از مه وز آفتاب رخشانی
وز چرخ ستارگان فرو ریزد	چون برگ رزان به باد آبانی
وز هول در آید از بیابانها	نخچیر رمنده بیابانی
عریان همه خلق وز بس سختی	كس را نبود خبر ز عریانی
چون پشیم زده شود كه و، مردم	همچون ملخان ز بس پریشانی
آنكه ز میان خلق برخیزد	خویشی و برادری و خسروانی
پوشیده نماید آن زمان كاری	كان را تو همی كنون پپوشانی
آن روز به عذر گفت نتوانی	می خورد فلان و من سپندانی
وانجا نرود ترا چنین كاری	كامروز در این جهان همی رانی

(نفسه: ٥٩)

أى: تيقن أن كل ما فعلت اليوم سوف تجده في المحشر. فخيف يوماً تتجلى فيه الأعمال المختفية. ذلك اليوم الذى يحكم الله تعالى بين الأنام. ذلك اليوم الذى يخسف فيه القمر وتكور الشمس وتكدر النجوم فتسقط كالورق فى فصل الخريف. تخرج الطرائد من المفاوز من شدة ذلك اليوم. يُعرى الورى جميعاً لكنّ الخلائق لا تنتبه إلى عريتها لشدة الأهوال فى ذلك اليوم. يوم تكون الجبال كالعهن المنفوش ويصير الناس كالفرش المبتوث. يوم لاتنفع قرابة ولا أحوّة. كل ما فعلت فى هذا العالم يبلى ذلك اليوم. فلم تعتذر ذلك اليوم، لأنّ الاعتذار لا يفيدك كما أفادك فى الحياة الدنيا.

٣-٤- علاقة الموت بالاغتراب عند أبي العتاهية وناصر خسرو

المراد بالاغتراب هو «حالة نفسية اجتماعية تسيطر على الفرد فتجعله غريباً وبعيداً عن واقعه الاجتماعى» (إديث، ١٩٩٣: ٣٦٩، أنظر: سلامي، ٢٠٠٠م: ٢٢). وهذا يمتّ بصلّة وثيقة إلى المعنى الاجتماعى الذى يتّضح من خلاله أنّ هذا الانعزال والابتعاد لا يمكن أن ينشأ من خلال الأحاسيس النفسية الأخرى كالخوف والحنين والقلق.

إذا دققنا النظر فى ثنايا شعر أبي العتاهية نجد أنواعاً مختلفة من الشعور بالاغتراب لديه، منها الاغتراب الزماني (كاغتراب الشاعر من أحداث الزمان واغترابه من الموت)، والاغتراب السياسى والاجتماعى (كاغترابه من الناس، ومن قيم المجتمع وعاداته وأعرافه السائدة) وأخيراً الاغتراب المكاني، إذ اتخذ الشاعر الزهد والعزلة من الأسباب الناجعة والطرق المؤثرة لقهْر هذه الصور المغترية فى الحياة.

يتضح لنا من خلال ديوانه الشعري أنه قد سئم من الحياة وملّ العيش فيها لكثرة ما فيها من آثام وشرور تجعل الشاعر يمتقتها وأبناءها وهذا ما جعله يرجح الموت ازدياءً بالدنيا أو كرهاً لها. فمن أجل ذلك يعتبر الاغتراب لديه من أصدق المحاور الشعرية التي ترسم حالته أصدق رسم وتكشف عن واقعه ومعاشه وهي أفضل وسيلة للتعبير عن أشجانه وآلامه التي واجهها طيلة الحياة وما أحاط به من الهواجس الدفينة. أدرج الشاعر في ثنايا القصائد التي تتعلق بالاغتراب، الشعور بالاغتراب من الناس وما كانوا عليه من الذمائم والقبائح. يُستنتج من اغترابه من الدهر وأبنائه أنّ هذا الشعور والإحساس ربما يصدر من مصادر عدّة، منها التجربة الشخصية التي عاناها الشاعر بين أبناء الدهر وما أصابه خلال ذلك من القنوط والحمران وسوء التصرف به، شعوره بضعة النفس والنسب، التدهور في الظروف الاجتماعية في المجتمع خاصة الدينية والخلقية، استعداده الفطري للذم والتأنيب بدل المدح والثناء. ينمّ هذا الإحساس عن نفس يفوس فاشلة لم تثق بأحد من الناس وصارت ترصد أبناء البشر على أنّ أهمّ ما يميّزهم الحيانة والغدر قائلاً:

فَيَا رَبِّ إِنَّ النَّاسَ لَا يُصِفُونَنِي	وَكَيْفَ وَلَوْ أَنْصَفْتُهُمْ ظَلَمُونِي
وَإِنْ كَانَ لِي شَيْءٌ تَصَدَّوْا لِأَخِيذِهِ	وَإِنْ جِئْتُ أَبْغِي سَبِيهِمْ مَنَعُونِي
وَإِنْ لَهْمُ رِفْدِي فَلَا شُكْرَ عِنْدَهُمْ	وَإِنْ أَنَا لَمْ أَبْدُلْ لَهُمْ شَتْمُونِي
وَإِنْ وَجَدُوا عِنْدِي رَحَاءً تَقَرَّبُوا	وَإِنْ نَزَلْتُ بِي شِدَّةٌ خَدَلُونِي
وَإِنْ طَرَقْتَنِي نَكَبَةً فَكِهِوْا بِهَا	وَإِنْ صَحَبْتَنِي نِعْمَةً حَسَدُونِي
سَأَمْنَعُ قَلْبِي أَنْ يَجِيَنَّ إِلَيْهِمْ	وَأَحْجُبُ عَنْهُمْ نَاطِرِي وَجُفْتُونِي

(أبو العتاهية، ١٩٦٥: ٤٦٥)

إنّ الممعن في شعر ناصر خسرو يجد أنّ هذه الثنائية أحدثت نوعاً من الاغتراب بأنواعه المختلفة في شعره، فمنها الاغتراب المكاني، الاغتراب الروحي، الاغتراب الزماني، الاغتراب من الناس والأعراف السائدة على المجتمع، والاعتراب السياسي والاجتماعي. أما الاغتراب الروحي من بين هذه الأنواع المختلفة فيمتّ بصلبة وثيقة إلى هذه الثنائية، فالشاعر يرى أنّ الجسم في هذا العالم الأرضي غريب، فيعتبر الجسم للروح نوعاً من السجن، فمن ثمّ يعبر عن طموحه إلى عالم مثاليّ نموذجيّ و من هذا الموقف يقترب الزهاد من المتصوّفين و «لا شكّ أنّ الوصول إلى هذا الفهم مرّ بمراحل وصل فيها مفهوم الزهد بصورته البسيطة إلى هذا المعنى الخاص لدى الصوفية عن غربة الرّوح في الجسد، بل في هذا العالم (أشرف علي، ٢٠٠٢م: ٤٥). تذكّرنا هذه الفكرة بعقيدة أبي العلاء المعريّ الذي سمّى نفسه رهين المحبسين أو رهين المحابس الثلاثة حيث قال في ديوانه «اللزوميات»:

أَرَانِي فِي الثَّلَاثَةِ مِنْ سُجُونِي	فَلَا تَسْأَلُ عَنِ الْخَيْرِ النَّبِيثِ
لِقَفْدِي نَاطِرِي، وَ لِرُؤْمِ بَيْتِي،	وَ كَوْنِ النَّفْسِ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ

(المعري، ١٩٨٣م، مج ١: ٢٤٩)

فعبّر ناصر خسرو عن الاغتراب الروحي في شعره أكثر من ثلاثين مرّة، فيقول:

زندان جان تست تن ای نادان	تیمارکار او چه خوری چندین؟
تتین تست تنت حذر کن زو	زیرا بخورد خواهدت این تتین
تو بر مراد او به چه می تازی	گاهی به چین و گاه به قسطنطین
بنگر که چیست بسته در این زندان	زنده و روان به چیست چنین این طین
... زندان تو آمد پسر این تن و، زندان	(المصدر نفسه: ٨٩)
	زیبا نشود گر چه پوشیش به دیا
	(المصدر نفسه: ٤)

أى: أيها الجاهل، إنَّ الجسم سجن روحك فلماذا تمرّضه هكذا؟. الجسم تتينك فاحذر منه، لأنه سيقضى عليك. لماذا تتعب نفسك في قضاء حاجاته تارة في الصين وتارة أخرى في قسطنطين؟. فانظر إلى أى شيء ربط في هذا السجن وبأى شيء يعيش ويحيى هذا الجسم؟. يا بنى، إنَّ الجسم سجن روحك، فلا يتزّين هذا الجسم وإن تلبسه الحرير.

٣-٥- صلة الحياة والموت بالنزعة التأملية عند أبي العتاهية وناصر خسرو

الشيب يمهد لأبي العتاهية السبيل ويُتيح له الفرص المؤاتية للتعبير عن الإنابة والاستغفار مما اقترف في عهد الشباب من الآثام والذنوب والإفصاح عن اللهو أيام الشباب وما أعقبه من حسرة نتيجة لتغيير الأحوال وتقلّبها، فتعتبر القبور والمحادثة معها وبثّ الشكوى إليهم من المظاهر التي تؤدي إلى التعزية والتسكين في نفسية الشاعر، فنراه كثيراً يناجى القبور وما تحت الثرى للتخفيف من خوفه رجاء الحصول على العزاء والطمأنينة، فمناداة القبور مظهر من مظاهر المطالبة بالسكون والإفراغ النفسى مع أنه يعلم مسبقاً أنّ هذه المناداة والمناجاة لا تؤدي إلى شيء سوى الحرمان والقنوط، فمن أجل ذلك تكوّن بينه وبين الأجداد حوار طويل ذات طابع حزين لكي يحصل على النتيجة المعروفة وهي فقدان الاستقرار والخلود على الكرة الأرضية، فيقول:

بَعْدِي وُجُوهُ فَيَكُ مُنْعَفِرَةٌ	إِنِّي سَأَلْتُ الْقَبْرَ مَا فَعَلَتْ
تُوذِيكَ بَعْدَ رَوَائِحِ عَطِرَةٍ	فَأَجَابَنِي صَبَّرْتُ رِيحَهُمْ
كَانَ النَّعِيمُ يَهْرُجُهَا، نَضْرَةٌ	وَأَكَلْتُ أَجْسَاداً مُنْعَمَةً
بِيضٍ تَلُوخٍ وَأَعْظَمُ نَجْرَةٌ	لَمْ أَبْقِ غَيْرَ جَمَاجِمٍ عَرِيَّتْ

(أبو العتاهية، ١٩٦٥: ١٧٧-١٧٦)

يتضح لنا من خلال هذه المقطوعة أنّ الشاعر استخدم أسلوب الحوار ليضفي على الشعر بُعداً درامياً مستهدفاً ترسيخ المعنى لدى المتلقى فهذا الأمر مما يساعده على تصوير أهوال الموت ومخاوفه حينما يشاهد القبور

والعظام النخرة. يدلّ هذا الأسلوب في طياته على الاستعداد المفاجئ للموت والتأهب للتزويد بصالح الأعمال والإفلاخ عن المعاصي والملاهي والإنابة إلى الله تعالى.

هذه المظاهر التي شاهدها الشاعر طيلة الحياة مما ساقته مساق التمتع بكل ما فيها من النعم والمتع كشمير المال والاضمآك في الملبذات والمغريات، فخلق هذا الشعور لديه باعثاً قوياً نحو التمتع التام بكل لحظات الحياة المتوفرة والسبب بسيط وهو «أنّ الشاعر نفسه يمتلكه إحساس بأنه لا يعرف شيئاً، فكلّ ما يراه هو أنّ الزمن يعدو، وأنّ العمر يعدو معه، فينبغي أن ينهل من الشباب قبل أن يداهمه المستقبل بالهموم» (الصانع، ۲۰۰۰م: ۳۵).

يتضح من خلال هذه الأبيات أنّ مصير الإنسان بعد الموت وما ينتظره من ثواب أو عقاب هو من الموضوعات التي شغلت بال الشاعر، فظهر لديه نوع من النزعة التأملية في الشعر، فمكافأة الأعمال، ثواباً كانت أو عقاباً، ساقته مساق العثور على كيفية مكانة الإنسان ومصيره في الحياة الخالدة سائلاً عمّا ينتظره في تلك الحياة، فإنها وقفة صادقة مع النفس فيها نزوع إلى التطهير وثقة بعفو الله تعالى وغفرانه، فيقول:

ألا ليت شعري بعد المش يب للمرء من غاية تُنتظرُ

(المصدر نفسه: ۱۶۲)

يعتبر التأمل والتدبّر في حقيقة الحياة والموت ومصير الإنسان في الحياتين من البواعث الأخرى التي ساقته ناصرخسرو مساق إمعان النظر في هذه الثنائية، فنراه يُكثر من ترداد الأسئلة التي تحاول الكشف عن رموز الحلقة ومكانة الإنسان فيها طالباً العثور على هذا السرّ المختوم. يعتبر الشاعر الموت قضية فلسفية تقيم صلوات وثيقة بمشاعره النفسية وتجاربه الدينية العميقة وامتزج فيها الإيمان الديني بالفكر الفلسفي الذي تستميل النفس إليه بغية إدراك سرّ الحياة الكامن في ذاتها، وهذا الموضوع جعل موقفه تجاه الحياة يتحول من نظرة متشائمة إلى رؤية عميقة تدرك زوال الحياة الدنيا وعدم استقرارها ويؤمن بجمتية الموت وحقيقة الوجود، فيقول:

زين پسم باز كجا برد همی خواهد	چون برون آرد از این خانه بیرانم؟
اندر این خانه ستم کردم و خوش خوردم	چون ستوران که تو گفتمی که نه انسام
چون نترسم که چو جائی بروم دیگر	به بد خویش بیاويزم و در مانم؟
چون هم امروز نگويم که چو در مانم	به چنان جا که کند دارو و درمانم؟
... خيزم اکنون که از این راز شدم آگه	گر د کردار بد از جامه بیفشانم
پيشتر زانکه از این خانه بخواندم	نامه خویش هم امروز فرو خوانم
هر چه دانم که برهنه شود آن فردا	خیره بر خویشستن امروز چه پوشانم؟
بد من نیکی گردد چو کنم توبه	که چنین کرد ایزد وعده به فرقانم

(المصدر نفسه: ۱۹۷-۱۹۶)

بنديش که کردگار گيتی	از بهر چه آوريدت ايدر
بنگر به چه محکمی بيسته ست	مر جان ترا بدین تن اندر

او راست بپای بی ستونی

ایمن گنبد گرد گرد اخضر

(المصدر نفسه: ٩٣)

أى: عندما متُّ فإلى أين سيذهب بي؟. لقد ظلمتُ نفسي فى هذه الدنيا وهوئْتُ كالأنعام حتى تظنَّ أننى لستُ بإنسان. كيف لا أخاف فى ذلك المقرِّ حيثُ أُبتليُّ بأعمالى السيئة؟. فأقرُّ اليومَ بأننى ندمتُ على ما اقترفتُ، فمن يخلصنى من ذلك العناء والبلاء ذلك اليومَ؟. عندما فهمتُ هذا السرَّ تركتُ الأعمال السيئة. أقرأ صحيفة أعمالى فى الدنيا قبل أن توافينى المنية. عندما تبثُّ تبدلُ سيئاتى حسناتٍ كما وعدنى الله تعالى فى القرآن الكريم. لقد علمتُ أنَّ الظالم والمقتصر يتعزبان ذلك اليومَ، ففكرتُ فيما ألبس هذا اليومَ؟. فكَّر لماذا خلقك الله تعالى؟. أنظر كيف شدَّ جسمك إلى هذه النفس!.. إنَّ هذه السماء الخضراء من غير عمدٍ فى قبضته تعالى.

مما يجدر بالذكر أنَّ الشاعر ينسب الأجل إلى علم الله تعالى فلا تدرى نفسٌ بأى أرض وفى أى ساعة تفوز بقاء ربحاً، فهذه المسألة من الموضوعات التى فوضها إلى الله تعالى، فيقول:

علم اجلها به هيچ خلق نداده ست
هيج نه بر كن تو زين نغال و نه بشكن

ايزد دانسى دادگستر ذوالمن

(المصدر نفسه: ١٧٠)

أى: إنَّ علم الآجال بيده الله العليم العادل المتفضل فلم يعطه أياً من عبادِه. الأنام بخدافيرهم أغراس فى يد الله تعالى فلا تُؤذهم ولا تقض عليهم.

إنَّ الممعن فى شعر ناصر خسرو يجد أنَّ الشاعر يعتبر الجهل والغفلة بمثابة الموت الحقيقى والتبصير واليقظة والصحوَّة بمثابة الحياة الحقيقية، فحاول من خلال هذا الأمر تشويق المخاطب على طلب الحكمة والمعرفة فى الحياة ويعدِّ المصادر الدينية خاصة القرآن الكريم أمثل نموذج فى هذا المجال.

جدير بالذكر أنَّ الشاعر يريد من المتلقَّى أن يبحث فى القرآن الكريم عن البقاء الخالد الأبدى، فهو من كنوز رحمة الله تعالى ومفتاح أسراره، فمن يُرد البقاء الحقيقى فعليه التمسك بالقرآن الكريم وتعاليمه السامية، فيقول:

ترا خدای ز بهر بقا پديد آورد
بقا به علم خدا اندر است و، فرقانست
اگر به علم و بقا هيچ حاجتست ترا
به جد او و بدو جمله باز بايد گشت
ترا و خاك و هوا و نبات و حيوان را
سراى علم و، كليد و درست فرقان را
سوى درش شتاب و بجوى دربان را
به روز حشر همه مؤمن و مسلمان را
به مؤمنان كه بدانند قدر فرمان را

(المصدر نفسه: ١١٨)

أى: لقد خلقك الله تعالى والسماء والأرض والنبات والحيوان من أجل البقاء. إنَّ البقاء ينحصر في الله تعالى والقرآن مفتاح البقاء وبابه. إن تحتج إلى العلم والبقاء فأسرع نحو بابه واطلب بوابه. يرجع الجميع إليه من مؤمن ومسلم يومَ الحشر. قد أمر الرسول (ص) المسلمين أن يكونوا عارفين بقيمة الأوامر.

٣-٦ - الحياة والموت الحقيقيان عند ناصرخسرو

كلّ من أمعن النظر في شعر ناصرخسرو يجد أنّ فكرة الحياة والموت عنده تراقق العلم والجهل، فيرى الشاعر أنّ الجهل والغفلة هو الموت الحقيقي والعلم والحكمة والصحة هي الحياة الأبدية الخالدة محاولاً تحريض المتلقى على كسب العلم والحكمة.

أتضح لنا من خلال هذه الأبيات أنّ الشاعر رافق الحياة والبقاء بالعلم والجهل، فمن حُرّم العلم في الحياة الدنيا فهو الميت الحقيقي. فالعلم هو الحياة الباقية والجهل هو الموت الأبدى، فمن تمّ يجعل العلم في مرتبة الإيمان والجهل في مرتبة الكفر، ويقول:

نيسـت كـفرسـت و هـست هـست إيمان	نيسـت مرگ اسـت و هـست هـست دانش
مـردـه نـادان و زـنـده دانـايان	مـرگ جـهـلـسـت و زـنـدگـى دانش
جـهـل چـون دـرد و عـلم چـون دـرمان	جـهـل مـانـند نيسـت و عـلم چـو هـست
نيسـت گـردـد بـه جـاهـلى نادان	هـست مـانـد بـه عـلم دانـا مـرد
او بـه راحـت رسـد هـى ز هـوان	وانـكـه از نيسـت هـست كـردنـدش
هـست را نيسـت صـنـعت شـيـطان	نيسـت را هـست صـنـع يـزدان كـرد
كـس نـدانـسـت نيسـت را سـامـان	...آنـچـه دانـا بـدانـش هـسـتـسـت
نيسـت با جـهـل هـر دوان زـوجـان	هـست و دانش قـرـين و جـفـتانـند

(المصدر نفسه: ٢٤١)

أى: الموت هو الفناء والعلم هو الحياة، والفناء هو الكفر، والإيمان هو البقاء. الجهل هو الموت، والعلم هو الحياة، والجهل هم الأموات والعلماء هم الأحياء. الجهل كالفناء والعلم كالحياة. الجهل كالداء والعلم كالعلاج. العالم يبقى ويعيش، والجاهل يفنى ويموت. فمن يحيى فهو يسير من الهوان نحو الرفاهية ورغادة العيش. إنّ الإحياء من أفعال الله تعالى والإفناء من صنعة الشيطان. كلّ ما يعلمه العالم فهو الحياة، فلا يعلم أحد حدود الفناء وتغوره. إنّ الحياة والعلم توأمان والجهل والفناء كالزواجين.

٣-٧ - أثر المصادر الإسلامية في فكرة الحياة والموت عند أبي العتاهية وناصرخسرو

الأمر الذي لا ريب فيه أنّ أبا العتاهية استقى معظم محاوره الشعرية من المصادر الإسلامية خاصة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، واستطاع أن يقرب نفسه وميوله الباطنية إلى ينبوع الإسلام ويشرب منها، وأما في الباطن «فقد ظلّ من طلاب الدنيا ومتاعها الزائل، وظلّ يطلبها ويلجّ في الطلب إلحاحاً شديداً» (ضيف،

١٩٦٦م: ٢٤٣). وهذا أمر يتضح من خلال قصائده حيث يعترف الشاعر بأنه ادعى الزهد في الدنيا ولم يكن زاهداً بعينه قائلاً:

تَزَاهَدْتُ فِي الدُّنْيَا وَإِنِّي لَرَاغِبٌ
وَعَوَّدْتُ نَفْسِي عَادَةً فَلَزِمْتُهَا
إِرَادُهُ مَدْحُولٍ وَعَقْلٌ مُقَصِّرٌ
أَرَى رَغْبَتِي مَمْرُوجَةً بِيَزَاهَادَتِي
أَرَاهُ عَظِيمًا أَنْ أَفَارِقَ عَادَتِي
وَلَوْ صَحَّ لِي عَقْلِي لَصَحَّتْ إِرَادَتِي

(أبو العتاهية، ١٩٦٥: ٧١)

وجدنا في هذه المقطوعة أنّ الشاعر وظّف مصطلح (التزاهد) لما فيه من معنى الادعاء أو المحاولة، إلا أنّ رغبته في الحياة كانت أقوى وأكثر إلحاحاً، فكانت محاولته الزهدية تصطدم أحياناً بهذه الرغبة القوية في الإقبال على الحياة، إذ ليس من السهل عليه أن يتنازل عن عادات ألفها والتزم بها، فيفرض عليه الزهد والتقشف التحلي عن تلك العادات وهو لذلك يقرّ بضعف إرادته وقصور تفكيره (عزالدين، ١٩٧٥م: ٣٠٤).

ومن أجل ذلك امتلأ شعره بالعظات والدعوة إلى نبذ الدنيا ومغرياتها وفضام النفس عن شهواتها، فمن ثمّ اقترب شعره من شعراء الحكمة والأخلاق الذين يتسم شعرهم بطابع الحكمة والمكارم الأخلاقية ولا نجد لديهم بصمة من الزهد أو التقشف أو ما نجده من مظاهر الزهد عند الشاعر الزاهد.

بغض النظر عن ثنائية الحياة والموت لدى الشاعر، إنّ زهده لا يأتي بشيء جديد ولا يحمل في ثناياه فلسفة جديدة ولا يبنى عن آراء وأفكار ترشد أبناء البشر نحو الفكرة الراقية سوى أنّه دعاهم نحو نبذ الدنيا ومغرياتها وعدم الافتتان بها والاهتمام بالحياة الآخرة. رغم أنّ الشاعر استقى معظم أفكاره الزهدية من المصادر الدينية كالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، امتزجت آراؤه بالحكم والأسس الأخلاقية التي تصوّر أحسن تصوير ذلك الصراع المرير بين الخير والشر وبين الحياة والفناء. وهذا الصراع الذي افترض مساحة كبيرة من شعره كان ناجماً عن إكثار الشاعر من فلسفة الحياة والموت.

يُستنتج من ثنائية الحياة والموت في شعر ناصر خسرو أنّ هذه الفكرة تنبع لديه من المصادر الأربعة وهي: التعاليم الإسلامية خاصة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، التجربة الشخصية، إمعان النظر في مصير الأقوام والملل البائدة والاعتبار بهم، وأخيراً الاعتبار بحياة الأولياء والأنبياء (عليهم السلام) خاصة النبي (ص) والإمام علي (ع) وفاطمة الزهراء (س)، فيرى القارئ بوضوح أنّ معظم قصائده «تستهدف النقاش في الموضوعات الدينية والدعوة إلى الإيمان والمعنوية وازدراء الدنيا والعزوف عن ملهياتها الفانية والتحرّيز على الصحوّة والتقوى» (رضا زاده شفق، ١٣٥٢ هـ: ٢٥٤).

الشاعر يرى البقاء الحقيقي والحياة الباقية في اجتماع الدين والدنيا والكمال والعقلانية والحكمة المطهرة التي تسير بالإنسان نحو دار السلام. فاتخذ هذه الثنائية أداة للتبشير والإنذار والموعظة الحسنة في الحياتين معتمداً في

هذا السبيل على القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فالشاعر كان على عقيدة دينية راسخة بأنّ الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر، ويقول:

بهشت كافر و زندان مؤمن جهانست، اى به دنيا گشته مفتون

(قبادياني، ١٣٥٧: ١٤٥)

... زندان مؤمنست جهان، من چنين زيرا همى قرار به يگان كنم

(المصدر نفسه: ٣٧٢)

أى: يا من اغترّ بالدنيا، الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر. العالم سجن المؤمن، فمن أجل ذلك أقمّثُ بـ «بمكان».

النتيجة :

اتضح لنا من خلال ما سبق عن الصراع المرير بين الحياة والموت في شعر أبي العتاهية وناصرخسرو أنّ أبا العتاهية خاف من الموت خوفاً شديداً فحاول طيلة الحياة أن يتخلّص من برائن الموت فلم يعد يستطيع فبقى مستسلماً خاضعاً أمام قدرة الموت وجبروته فاتخذ الموت أداة للتهيب والتخويف. فى الحقيقة أنّ خوف الشاعر من الموت يصدر من مصادر عدّة، فمنها ما يعود إلى ما رأى فى زمن الحياة من المشاهد الدموية وتقتيل الأبرياء فى النظام السائد، ومنها ما يعود إلى ضعفه الجسمانى وما عانى أثناء الحياة من عقدة النقص والتعبير وضعة النسب. كلّ هذه العوامل جعلته خائفاً مضطرباً أمام الموت، فمن تمّ يمثّل كلّ مظاهر الحياة من الشيب والعجز والفتور فكرة الموت والفناء. فمن أجل ذلك التجأ الشاعر إلى مظاهر الفناء والخلود وهذا ما خلق فى كيانه زوابع القلق والحيرة وشغل باله بالمغبة والمصير. أثارت هذه الثنائية فى كيان الشاعر دوامة مخيفة ومهيبية وصار الموت بمنزلة أمر محتوم لا يد منه، فمن تمّ استخدم فكرة الموت فى شعره الزهدى للحصول على غرضين هامّين وهما التخويف والتهيب ثمّ تسليّة النفس والعزاء.

كذلك تطرّق ناصرخسرو إلى موضوع الحياة والموت فى شعره الحكيمى وتحدّث عنه فى تضاعيف ديوانه الشعرى. إذا أمعنا النظر فى أشعاره التى تمتّ بصلّة إلى هذا الموضوع نجد أنّ ناصرخسرو لم يُبدِ أىّ ضعف أو قلق أو خوف أمام الموت وما ينتظر الإنسان فى الحياة الأخرى، بل تمسّك بتعاليم الإسلام السمحة وما جاء فى طياتها من هذا الموضوع فجعله هذا الأمر مطمئناً أمام قضية الموت. فضلاً عن ذلك يُعتبر ناصرخسرو داعياً دينياً فى الديانة الإسماعيلية فاستخدم أدبه عامّة وشعره خاصّة لبثّ المثل الدينية النبيلة وإسداء النصح والتزوّد بصالح الأعمال فى الحياة الدنيا، فمن أجل ذلك لا نجدّه قلقاً أو خائفاً سطوة الموت.

اختلفت ثنائية الحياة والموت لدى ناصرخسرو بالحكمة والعلم، فكلّ من يتحلّى بهما فهو حيّ وإن لم يكن بين أبناء جنسه، وهذا ناتج عن تطوافه بين الأديان والشعوب المختلفة وسعة معرفته بالعلوم الشائعة فى عصره.

الشاعر يريد بهذا أن يشوق المتلقي ويرغبه في اكتساب العلوم والمعارف خاصة فيما يمت بصلة إلى الثوابت الدينية النبيلة. على خلاف أبي العتاهية، عندما أمعنا النظر في تضاعيف أشعاره نجد أنه لا يزال يُطلق اللسان في الإنابة والاستغفار إثر ما قدّم في أيام الشباب من الذنوب التي أفدحت كاهله ويتساءل في نفسه عمّا سيحدث له في الحياة الأخرى، هل سيُعدُّ في زمرة أهل الجنة أم سيُحلّ في السعير والنار؟. وأثار هذا الموضوع زوبعة في كيانه، والذي يسترعى انتباه الشاعر في الحياة الدنيا هو ما سينتظره في تلك الحياة الخالدة من العقاب أو الثواب. فمن هذا المنطلق، يوصي المتلقي دائماً بالتزهد والتنسك والقيام بالمجاهدات النفسية والتقشف واجتناب النواهي والإنابة ليوم القيامة، فمن ثمّ يعتبر التخويف وإسداء النصيح من أهمّ أسسه الفكرية لدى المتلقين.

المصادر والمراجع

- ١- إديث، كرزويل، (١٩٩٣م)، «تعريف بالمصطلحات الأساسية الواردة في كتاب عصر البنيوية»، ترجمة: جابر عصفور، الكويت: دار سعاد الصباح، ط ١.
- ٢- أبو العتاهية، إسماعيل بن قاسم، (١٩٦٥م)، «أشعاره وأخباره»، تحقيق شكري فيصل، بيروت: مكتبة دار الملاح للطباعة والنشر.
- ٣- الأصفهانى، أبو الفرج، (١٩٨٦م)، «الأغاني»، شرحه سمير جابر، بيروت- لبنان: دار الكتب العلمية.
- ٤- أشرف علي، الدعدور، (٢٠٠٢م)، «الغربة في الشعر الأندلسي عقب سقوط الخلافة»، القاهرة: دار نضمة الشرق، ط ١.
- ٥- التزمذى، محمد، (د.ت)، «سنن»، تحقيق إبراهيم عطوة عوض، القاهرة: مكتبة دار نضمة مصر، ط ١.
- ٦- خلف الله، محمد، (١٩٤٧م)، «دراسات في الأدب الإسلامي»، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- ٧- خليف، يوسف، (١٩٨١م)، «تاريخ الشعر في العصر العباسي»، القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر.
- ٨- زكريا، إبراهيم، (د.ت)، «مشكلة الإنسان»، مصر- فجالة: مكتبة مصر.
- ٩- سلامي، سميرة، (٢٠٠٠م)، «الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري»، دمشق: دار الينابيع، ط ٢.
- ١٠- شاهين، سمير الحاج، (١٩٨٠م)، «لحظة الأبدية»، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ١.

- ١١- الشورى، مصطفى عبدالشافى، (١٩٩٥م)، «شعر الرثاء في العصر الجاهلي دراسة فنية»، بيروت: الشركة المصرية العالمية للنشر، ط٢،
- ١٢- الصانع، عبدالله، (٢٠٠٠م)، «الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام»، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ط٢،
- ١٣- ضيف، شوقي، (١٩٦٦م)، «تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)»، بيروت: دار المعارف.
- ١٤- عانوني، أسامة، (١٩٦٦م)، «أبو العتاهية رائد الزهد في الشعر العربي»، بيروت: المكتبة الأهلية.
- ١٥- عبدالغني الشيخ، محمد، (١٩٨٣م)، «النثر الفني في العصر العباسي الأول اتجاهاته وتطوره»، مصر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- ١٦- عدس، عبدالرحمن ونايفة قطامي، (٢٠٠٢م)، «مبادئ علم النفس»، عمان: دار الفكر، ط٢،
- ١٧- عزالدين، إسماعيل، (١٩٧٥م)، «في الأدب العباسي الرؤية والفن»، بيروت: دار النهضة العربية.
- ١٨- العشماوى، محمد زكى، (١٩٧٨م)، «قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث»، الإسكندرية: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ط٣،
- ١٩- الكفراوى، محمد عبدالعزيز، (١٩٧٢م)، «أسطورة الزهد عند أبي العتاهية»، القاهرة: دار تحفة مصر.
- ٢٠- المعرى، أبو العلاء أحمد بن عبدالله، (١٩٨٣م)، «اللزوميات»، مج١، بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر.
- ٢١- آربرى، آرتورجان، (١٣٧١هـ)، «ادبيات كلاسيك فارسى»، ترجمه اسدالله آزاد، مشهد: معاونت فرهنگى آستان قدس رضوى.
- ٢٢- رضا زاده شفق، صادق، (١٣٥٢هـ)، «تاريخ ادبيات ايران»، شيراز: دانشگاه شيراز.
- ٢٣- دفتري، فرهاد، (١٣٧٥هـ)، «تاريخ و عقايد اسماعيليه»، ترجمه فريدون بدره اى، تهران: فرزانه.

٢٤- زرین کوب، عبدالحسین، (١٣٧٥ هـ)، «از گذشته ادبی ایران»، تهران: انتشارات بین المللی الهدی، چاپ اول.

٢٥- قبادیانی، ناصر خسرو، (١٣٥٧ هـ)، «دیوان اشعار»، به اهتمام مجتبی مینوی و مهدی محقق، تهران: دانشگاه تهران و مؤسسه مطالعات اسلامی مک گیل.

٢٦- مستوفی، هوشنگ، (١٣٣٤ هـ)، «شعراى بزرگ ایران از قرن سوم تا نیمه قرن پنجم»، تهران: فردوسی.

٢٧- هرمان، اته، (١٣٥٦ هـ)، «تاریخ ادبیات فارسی»، ترجمه رضازاده شفق، تهران: بنگاه ترجمه و نشر کتاب.

فصلنامهٔ لسان مبین (پژوهش ادب عربی)
(علمی - پژوهشی)
سال ششم، دورهٔ جدید، شمارهٔ هجدهم، زمستان ۱۳۹۳
کشمکش میان زندگی و مرگ در شعر ابوالعتاهیه و ناصر خسرو*

عباس یدالهی

استادیار دانشگاه شهید چمران - اهواز

سردار اصلانی

استادیار دانشگاه اصفهان

چکیده

زندگی و مرگ یکی از موضوعاتی است که از دیرباز ذهن انسان را به خود مشغول کرده است. این مسأله یکی از موضوعات مهم در شعر زهد به شمار می آید و شعر تلاش کردند تا به حقیقت واقعی آن دست یابند. ابوالعتاهیه و ناصر خسرو از جمله شاعران زهد در ادبیات عرب و فارسی به شمار می آیند و از این رو، در شعرشان توجهی خاص به این موضوع از خود نشان داده اند. این پژوهش به بررسی پدیده مرگ و زندگی در شعر ابوالعتاهیه و ناصر خسرو قبادیانی در چارچوب ادبیات تطبیقی می پردازد. شکی نیست که موضوع مرگ و زندگی یکی از مهمترین محورهای شعر زهد در میان شاعران زهد پیشه است. این دو شاعر در شعر زهدشان از مفهوم مرگ و زندگی پرده برداشتند. هر گاه نظری به شعر این دو شاعر بیندازیم در می یابیم که ابوالعتاهیه در طول زندگی اش به شدت از مرگ هراس داشت و تلاش می کرد که خود را از چنگال مرگ نجات دهد. اما نتوانست و در نهایت مرگ را به عنوان ابزاری برای بیان نصیحت و موعظه برگزید. ناصر خسرو نیز در شعر خود به این موضوع پرداخت و به حتمی بودن آن ایمان داشت، و در این زمینه بر مبانی دینی تکیه کرد و همیشه انسان را به توشه گرفتن از نیکی ها و آمادگی برای مرگ سفارش می کند.

کلمات کلیدی: حیات و مرگ، ابوالعتاهیه، ناصر خسرو، ادبیات تطبیقی.

* - تاریخ دریافت: ۱۳۹۲/۰۲/۱۶ تاریخ پذیرش نهائی: ۱۳۹۲/۱۰/۰۸

نشانی پست الکترونیکی نویسنده: yadollahi-a@yahoo.com